العثمانيون

١- عثمان:

ظهرت نواة الدولة العثمانية سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) عندما بدأ عثمان بن أرطغرل يسعى لتوسعة إمارته في الأرض التي أعطاها علاء الدين السلجوقي لأرطغرل لقاء مساعدته في قتال البيزنطيين، وكانت هذه الأرض على حدود الدولة البيزنطية التي انحسر سلطانها كثيراً في البر الآسيوي حتى لم يبق سوى رقعةٍ من الأرض تُساير سواحل البحر الأسود الجنوبية الغربية، وسواحل بحر مرمرة، وسواحل بحر إيجه.

وتقع هذه الأرض بين (كوتاهية) و(بورصة) اليوم، وكان هدف هذا العطاء ليكون أرطغرل وقبيلته درءاً لعلاء الدين السلجوقي يصدّ به عن إمارته غارات البيزنطيين. وتوفي أرطغرل سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) وخلفه ابنه عثمان برأي الأمير علاء الدين.

ضمّ عثمان القلعة السوداء (قره حصار، أو أفيون قره حصار) سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) فسُرّ الأمير علاء الدين بذلك.

وقتل المغول الأمير علاء الدين السلجوقي سنة ٦٩٩هـ (١٢٩٩م) ومن بعده ابنه، فغدا عثمان سيد نفسه في المنطقة،

وليس هناك من أحدٍ يرجع إليه، فأخذ يتوسّع، فهزم المغول، وفتح مدينة بورصة (بروسة) سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م).

٢- أورخان:

توفي عثمان سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٥م) وخلفه ابنه أورخان فاتخذ من بورصة قاعدةً له، وأسس الجيش الانكشاري، ووسع إمارته حيث ضمّ إليها بعض الإمارات السلجوقية التي يتوفّى أمراؤها أو يختلف أهلها بعضهم مع بعضٍ، كما فتح مدناً وأجزاء من الدولة البيزنطية.

وفي عام ٧٥٦هـ (١٣٥٥م) طلب إمبراطور بيزنطة يوحنا الخامس (يوحنا باليوج) من أورخان مساعدته ضد ملك الصرب (اصطفان دوشان) الملقب بالقوي والذي تحالف مع البندقية بالهجوم على القسطنطينية، ووعده أن يزوّجه أخت زوجته، وهي ابنة الوصي على عرش بيزنطة (يوحنا كانتا كوزين)، فأرسل أورخان له الجند غير أن اصطفان دوشان قد أدركه الموت، وتوقّف الاستعداد، وعاد الجنود العثمانيون إلى بلادهم دون قتالٍ، وتزوّج أورخان ابنة الوصيّ.

شعر أورخان بضعف الدولة البيزنطية بعد أن طلبت مساعدته، ورأى أن المسلمين قد عجزوا عن فتح القسطنطينية من جهة

الشرق، لذا قرر الانتقال إلى الضفة الأوربية عن طريق مضيق الدردنيل، وإحاطة القسطنطينية وإعلان الجهاد، وأرسل ابنه الأكبر، وولي عهده (سليمان) ووزير الدولة الأول لدراسة الغزو والتخطيط له.

وفي سنة ٧٥٨هـ (١٣٥٧م) اجتاز سليمان مع أربعين رجلاً من أبطاله مضيق الدردنيل، ووصلوا إلى الضفة الغربية، واستولوا على الزوارق الرومية الراسية هناك، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية، إذ لم يكن للعثمانيين أسطول بعد، حيث لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها، وفي الضفة الشرقية أمر سليمان جنوده أن يركبوا في الزوارق حيث نقلهم إلى الشاطئ الأوربي فاحتلوا المدن والقلاع الواقعة على مضيق الدردنيل من الجنوب إلى الشمال، ومنها قلعة (جنا قلعة) المشهورة في مدينة غاليبولي، وقلعة (نزيب)، و(ابسالا) ثم (رودستو) على بحر مرمرة.

وتوفي ولي العهد سليمان عام ٧٦٠هـ (١٣٥٨م) نتيجة سقوطه عن جواده، وأصبح أخوه مراد ولياً للعهد. ثم توفي أورخان عام ٧٦١هـ (١٣٥٩م)، وتولّى مراد السلطنة باسم مراد الأول، وانتصر على أمراء الأناضول.

٣- مراد الأول:

فتح السلطان مراد الأول مدينة أدرنة في القسم الأوربي، وقد سلمها القائد الرومي بعد أن يئس من المقاومة، فنقل مراد الأول عاصمته إليها ليكون على مقربةٍ من الجهاد في أوربا، وليكون الهجوم على القسطنطينية من جهة الغرب أكثر قوةً. وبقيت هذه المدينة عاصمةً للعثمانيين حتى فُتحت القسطنطينية عام ٨٥٧هـ (١٤٥٣م). كما فتح مراد الأول مدينة (فيلبة) قاعدة الروملي الشرقي (جنوبي بلغاريا اليوم). وأصبحت القسطنطينية محاطةً بالعثمانيين، فتقدّم إمبراطورها فدفع الجزية طواعيةً، وقلبه مليء بالأحقاد.

وهكذا أصبح العثمانيون في البقان فخاف أمراء البلقان ومن جاورهم على أنفسهم وعلى أملاكهم فكتبوا إلى ملوك أوربا الغربية وإلى البابا يستنجدون بهم ضد المسلمين حتى إمبراطور القسطنطينية ذهب إلى البابا، وركع أمامه، وقبّل يديه ورجليه، ورجاه الدعم رغم الخلاف المذهبي بينهما. فلبّى البابا النداء، وكتب إلى ملوك أوربا عامةً يطلب منهم الاستعداد للقيام بحربٍ صليبيةٍ جديدةٍ حفاظاً على النصرانية من التقدّم الإسلامي الجديد.

لم يتوقّع ملك الصرب (أوروك الخامس) الذي خلف (اصطفان دوشان) هذا الدعم السريع من البابا وملوك أوربا لذا فقد استنهض همّة الأمراء المجاورين له والذين أصبحوا على مقربةٍ من الخطر -على حد زعمهم- فاستجابوا له، وسار الجميع نحو أدرنة حاضرة العثمانيين مستغلّين دخول السلطان مراد الأول ببعض الحروب في آسيا الصغرى، غير أن الجيش العثماني قد أسرع للقاء أعدائه فاصطدم بهم على نهر مارتيزا[1] فهزمهم هزيمةً منكرةً، وولّوا الأدبار، واضطرت إمارة نصرانية صغيرة على بحر الأدرياتيك على ساحل كرواتيا اليوم، وهي إمارة (راجوزة) أن ترسل وفداً إلى السلطان، ويعقد معه صلحاً، تدفع الإمارة بموجبه جزيةً سنويةً.

وحاول ملك الصرب الجديد (لازار بلينا نوفتش) وأمر البلغار (سيسمان) الاتفاق على قتال العثمانيين، فوجدا نفسيهما ضعيفين رغم أنهما لم يخوضا سوى بعض المعارك الجانبية فاضطرا إلى دفع جزيةٍ سنويةٍ.

---

(١) نهر مارتيزا: نهر صغير ينبع من غربي بلغاريا، ويمر على أدرنة، ويصب في بحر إيجه.

وتأخّر الصرب والبلغار في دفع الجزية، ويبدو أنه كان على اتفاقٍ بينهما في هذا التأخير، فتوجّهت الجيوش العثمانية إلى بلادهم ففتحت بعض المدن الصربية التي تقع اليوم في جنوبي يوغوسلافيا، كما حصرت عاصمة البلغار صوفيا ودخلتها عام ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) بعد حصارٍ استمرّ ثلاث سنوات، كما دخلت جيوش السلطان مراد الأول مدينة (سلانيك) المدينة اليونانية المشهورة والواقعة على بحر إيجه.

استغلّ الصرب دخول العثمانيين بعض المعارك في الأناضول فهاجموا القوات العثمانية في جنوبي الصرب، وحصلوا على بعض النجاح سنة ٧٨٨هـ (١٣٨٦م)، وتأهّب أمير البلغار (سيسمان) للقيام بدوره أيضاً غير أن الجيوش العثمانية قد داهمته واحتلّت أجزاءً من بلاده، ففرّ إلى الشمال، واختفى في مدينة (نيكوبلي) القريبة من الحدود الرومانية، وجمع فلول جيشه وهاجم بها العثمانيين غير أنه هُزم، ووقع أسيراً، لكن السلطان مراد الأول أحسن إليه فأبقاه أميراً على نصف بلاده، وضمّ الباقي إلى الدولة العثمانية كي لا تُغريه نفسه فيعاود الغارات.

ولما علم ملك الصرب (لازار) ما حدث لأمير البلغار انسحب

بجيوشه نحو الغرب للانضمام إلى الألبانيين ومحاربة العثمانيين معهم غير أن الجيوش العثمانية أدركته قبل وصوله إلى مبتغاه، وكانت أوربا تدعمه، والتقت الجيوش العثمانية به وبمن معه في وسط سهل قوصوى (كوسوفا) سنة ٧٩١هـ[١] (١٣٨٩م). وكان القتال سجالاً بين الطرفين إلا أن صهر (لازار) قد بان له الحق، ورأى الفرق واضحاً في أسلوب القتال حيث لا يحمل المسلمون أي حقدٍ، على حين يظهر هذا الحقد جلياً عند الصرب فانحاز إلى جانب المسلمين بفرقته المؤلفة من عشرة آلاف مقاتلٍ، فانهزم الصرب، ووقع ملكهم (لازار) أسيراً بأيدي العثمانيين وهو جريح فقتلوه لما فعل من أعمال خسيسةٍ بأسراه من المسلمين. وكذلك فقد استشهد السلطان مراد الأول، وهو يتفقّد نتائج المعركة، ويتفحّص الجثث إذ قام إليه من بين الجثث جندي صربي، وطعنه بخنجرٍ فأرداه قتيلاً، وقتل الجند العثمانيون القاتل الصربي مباشرة.

طبعت هذه المعركة في نفوس الصرب وملأتها حقداً وشحنتها ضغينةً إذ هُزموا فيها وقُتل ملكهم، وكانت هذه المعركة هي المحفوظة في ذاكرتهم المدوّنة في تاريخهم. قُتل ملكهم وهو

(١) تبدأ سنة ٧٩١هـ في ٣١ كانون الأول ١٣٨٨م.

الظالم المعتدي وبالقتال المبتدي، وشحنت نفوسهم حقداً على أرض المعركة فيجب أن تكون دائماً تحت سلطانهم، وعلى سكان المنطقة فيجب أن يكونوا عبيداً لهم أبداً، وعلى العثمانيين فيجب أن يبقوا أعداءً لهم على مدار التاريخ، وعلى زمن المعركة فيجب في كل ذكرى سنوية لها ارتكاب جرائم وإبادة ما أمكن من السكان، فياللعجب ويالالأحقاد!!

٤- بايزيد:

تولّى السلطنة بعد أبيه مراد الأول، فعيّن اصطفان بن لازار ملكاً على الصرب، وكان يأخذ منه جزيةً سنويةً، كما يُقدّم اصطفان المقاتلين الصرب للسلطان حين الطلب، وحاصر بايزيد القسطنطينية سنة ٧٩٤هـ (١٣٩١م)، وفرض سيادته على الأفلاق (الجزء الجنوبي من رومانيا اليوم)، وأجبر حاكمها على دفع جزيةٍ سنويةٍ.

سار السلطان إلى بلاد البلغار، وجعلها ولايةً عثمانيةً، وقتل أميرها (سيسمان)، وأسلم ابن الأمير المقتول (سيسمان)، فجعله السلطان والياً على (صامسون) المدينة العثمانية على البحر الأسود.

ولما وصلت أخبار الانتصارات العثمانية هذه إلى ملك المجر استغاث بالبابا وبملوك أوربا، فأعلنها الباب حرباً صليبيةً، ودعا إليها الملوك والأمراء فاستجابوا له، وانطلقت جموعهم فاجتازت نهر الدانوب، وحاصرت مدينة (نيكوبلي) في شمالي بلغاريا، ووصل جيش السلطان بقيادة أمير الصرب اصطفان بن لازار، وكان اللقاء يوم ٢٣ ذي القعدة ٧٩٨ (٢٩ آب ١٣٩٦م)، وانتصر العثمانيون، وأسروا عدداً من الأمراء الأوربيين الذين فدوا أنفسهم بالمال.

وبعد هذا الانتصار عقد السلطان بايزيد صلحاً مع إمبراطور بيزنطة فكّ بموجبه الحصار عن القسطنطينية الذي استمرّ ما يقرب من أربع سنواتٍ وذلك مقابل عشرة آلاف دينارٍ ذهبيٍ، والسماح ببناء مسجد للمسلمين في القسطنطينية.

وضعفت السلطنة العثمانية بعد هجوم تيمورلنك عليها من جهة الشرق، وهزيمته للسلطان بايزيد في سهل أنقرة في ١٩ ذي الحجة عام ٨٠٤هـ (١٩ تموز ١٤٠٢م)، وأسره مع ابنه موسى، ثم وفاته في ١٥ شعبان عام ٨٠٥هـ، ثم اختلاف أبنائه من بعده على السلطنة.

٥- محمد بن بايزيد:

وعُرف باسم محمد جلبي، وانتصر على التتار، وتغلّب على إخوته فتفرّد بالسلطة عام ٨١٦هـ، وتوفي عام ٨٢٤هـ، وقد أوصى من بعده لابنه مراد.

٦- مراد الثاني:

حاصر القسطنطينية ثم رفع الحصار عنها، وسار لقتال ملك المجر فهزمه، وعقد معه معاهدةً تنازل فيها ملك المجر للسلطان عن أملاكه التي تقع على الضفة اليمنى لنهر الدانوب الذي سيكون حداً فاصلاً بين الطرفين.

ورأى أمير الصرب (جورج برنكوفتش) ذلك فعقد معاهدةً مع السلطان تقضي بدفع جزيةٍ سنويةٍ مقدارها خمسين ألف دوك ذهبي، وأن يُقدّم فرقةً من جنوده لمساعدة السلطان في حروبه، وأن يقطع علاقاته مع ملك المجر.

اعترف أمير الأفلاق بسيادة العثمانيين على بلاده عام ٨٣٦هـ (١٤٣٢م).

خضعت ألبانيا له بعد حروبٍ بسيطةٍ، واشترط أميرها عدم التعرّض لعقائد السكان، وسلّم أولاده الأربعة رهينةً للسلطان،

وعندما توفي هذا الأمير عام ٨٣٤هـ (١٤٣٠م) ضمّ السلطان أملاكه إليه.

رأى السلطان أن نفوذه قد استقرّ في البلقان من أوربا وأن سلطانه قد توطّد في الأناضول، وأن إمبراطور القسطنطينية لم يبق له سند، فإن سار إليه السلطان يمكنه فتح القسطنطينية، وقد طمح السلطان مراد الثاني أن يكون مغفوراً له كما حدّث بذلك رسول الله، ﷺ، ولكن ما إن بدأ يستعدّ لأداء مهمته حتى عاد حكام أوربا المتعاقدين معه على نقض العهد وإعلان العصيان.

حرّض ملك المجر أمير الأفلاق وأمير الصرب فثارا، فأدبهما السلطان، ثم سار إلى ملك المجر فهزمه، وجاس خلال دياره، وعاد بعددٍ عظيمٍ من الأسرى.

عاد أمير الصرب (جورج برنكوفتش) فأعلن العصيان، فسار إليه السلطان وفتح جزءاً من بلاده، وحاصر العاصمة بلغراد فغادرها أميرها متوجهاً إلى ملك المجر، ورفع السلطان الحصار عن بلغراد وأرسل جيشه لدخول ترانسلفانيا[1] من أراضي ملك المجر غير أن جيشه قد هُزم، وقُتل قائده مع عشرين ألفاً من

(١) تراسلفانيا: تقع اليوم في الجزء الغربي من دولة رومانيا.

جنده، وانسحب العثمانيون إلى ما بعد نهر الدانوب، فأرسل السلطان جيشاً آخر قوامه ثمانون ألفاً غير أنه هُزم أيضاً، وأُسر قائده عام ٨٤٥هـ (١٤٤١م)، وسار الجيش المجري بعد ذلك إلى بلاد الصرب فالتقى عام ٨٤٦هـ (١٤٤٢م) بالسلطان مراد الثاني نفسه على رأس جيش فنشبت بين الفريقين ثلاث معارك هُزم فيها السلطان كلها، واضطر إلى توقيع معاهدةٍ تنازل فيها السلطان عن الأفلاق للمجر، وردّ للصرب بعض المواقع، وقامت بين الطرفين هدنة مدتها عشر سنواتٍ.

شعر السلطان بالتعب فرأى أن يخلد إلى الراحة، فترك الحكم لابنه الثاني محمد[1] الذي لم يبلغ من العمر الرابعة عشرة، وسافر إلى غربي الأناضول في ولاية (آيدين) حيث الهدوء.

كان البابا يراقب الأحداث، وسُرّ سروراً بالغاً بهزيمة السلطان، وخاصةً أنه كان قد اشترك مع المجريين أعداد من الصليبيين من بولنديين وفرنسيين وألمان وبنادقة وجنويين إضافةً إلى الأفلاق والصرب وغيرهم، وأثارت البابا تلك المعاهدة التي وقّعها السلطان مع المجريين، وأنهت الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنواتٍ لذا فقد أرسل البابا مندوباً من قبله، وهو (سيزاريني) إلى ملك المجر، وطلب منه

(١) الابن الأكبر اسمه علاء الدين، وقد توفي عام ٨٤٨هـ.

نقض العهد، وقال له: ليس في هذا النقض شيء من الناحية الدينية، فليس مع الكفار المسلمين نقض لعهدٍ أو حنث بقسمٍ.

تنادى ملوك النصارى لشنّ حملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ، فجمعوا كيدهم وأتوا صفاً واحداً، وهاجموا بلاد البلغار، وساعدهم على ذلك أن السلطان كان في عزلته، وأن ولده الصغير لم يتمرّس بعد على القتال، ووصل الخبر إلى السلطان فغادر مكانه، واتجه إلى أوربا، فقاد الجيش وسار نحو الأعداء فوجدهم يحاصرون مدينة (فارنا) البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود فنازلهم، فقُتل ملك المجر في ساحة المعركة، فاختلّ ترابط الأعداء فهاجم السلطان معسكرهم، واحتلّه، وقتل الكاردينال (سيزاريني) مندوب البابا، وتمّ النصر للمسلمين في ٢٨ رجب عام ٨٤٨هـ (١٨ كانون الأول ١٤٤٤م) وعاد السلطان فترك الأمر إلى ابنه محمد وعاد إلى استراحته.

رجع السلطان بعد ثلاثة أشهرٍ إلى أدرنة لتأديب بعض القادة، والسير لحرب اليونان، وكان إسكندر أحد أبناء أمير ألبانيا الذين عاشوا رهينةً عند السلطان عندما سلّم أبوه البلاد للسلطان، قد أظهر إسكندر الإسلام، ولما وجد السلطان مشغولاً بالحروب فرّ

إلى ألبانيا، وطرد العثمانيين منها، فسار إليه السلطان بقوةٍ كبيرةٍ وهزمه، وأخذ منه بعض المواقع عام ٨٥١هـ (١٤٤٧م)، ثم اضطرّ إلى تركه للتوجّه إلى مقابلة الجيش المجري الذي أراد أن يثأر لما أصابه في معركة (فارنا)، والتقى به في وادي كوسوفا فانتصر عليه نصراً مؤزراً عام ٨٥٢هـ (١٤٤٨م)، ثم عاد فاتجه إلى إسكندر، وحاصر مدينة (آق حصار)، ولم يتمكّن من فتحها لتعب جنده، فأراد أن يتفق مع إسكندر فيسلّمه حكم ألبانيا مقابل جزيةٍ سنويةٍ، غير أن إسكندر لم يقبل، واضطر السلطان أن يعود إلى (أدرنة) للاستعداد غير أن المنية وافته هناك في ٥ محرم ٨٥٥هـ (٨ شباط ١٤٥١م)، وتسلّم ابنه محمد السلطنة.

٧- محمد الفاتح:

أراد متابعة ما سعى له أبوه بالعمل لفتح القسطنطينية فأخذ يستعدّ، ورأى إمبراطور بيزنطة ما عزم عليه السلطان محمد الثاني فعرض عليه الجزية التي يريد فرفض السلطان، فأخذ الإمبراطور يستنجد بالدول النصرانية والبابا، وجاء الدعم ولكن لم يفد شيئاً.

بدأ الهجوم على القسطنطينية في ١٠جمادى الأولى ٨٥٧هـ (١٨حزيران ١٤٥٣م)، وما كان الظهر حتى فتحت المدينة ودخلها

السلطان محمد، وصلّى في كنيسة (أيا صوفيا) الظهر، وقد تحوّلت إلى مسجدٍ.

أخذ السلطان محمد الفاتح الجزية من ملك بلاد المورة، ومن أمير الصرب، ودخل بلاد الصرب ولكن لم يتمكّن من دخول العاصمة بلغراد. ثم دخلها الصدر الأعظم محمود باشا سنة ٨٦٢هـ (١٤٥٧م).

ثم فتح السلطان محمد الفاتح بلاد المورة سنة ٨٦٣هـ (١٤٥٨م) وفرّ ملكها إلى إيطاليا، ودخل الجزر التي في بحر إيجه قرب مضيق الدردنيل.

وعقد صلحاً مع أمير ألبانيا إسكندر.

توجّه السلطان سراً إلى الأناضول فدخل ميناء (اماستريس) الذي يتبع جنوة، وأكثر سكانه من التجار، كما دخل ميناء (سينوب) على البحر الأسود، ومملكة (طرابزون) على البحر الأسود، وكانت تتبع القسطنطينية.

سار السلطان إلى أوربا لمحاربة أمير الأفلاق لظلمه وتعدّياته على العثمانيين، فطلب الأمير صلحاً مقابل جزيةٍ سنويةٍ قدرها عشرة آلاف دوك، فوافق السلطان غير أن الأمير لم يطلب هذا

الصلح إلا لتُتاح له الفرصة ليتفق مع ملك المجر لمحاربة العثمانيين، فلما اتفقا، وعلم السلطان أرسل إليه رجلين يستوضح الخبر فقتلهما أمير الأفلاق، وسار مُغيراً على أملاك الدولة العثمانية في بلغاريا، فأفسد فيها، وساق الأسرى، فأرسل إليه السلطان وفداً يطلب منه أن يُعيد الأسرى، ويبقى على صلحه، فمثّل بأعضاء الوفد شرّ تمثيلٍ، فسار إليه السلطان، ففرّ أمير الأفلاق إلى ملك المجر، فضمّ السلطان الأفلاق إلى العثمانيين، وعين أخا أمير الأفلاق السابق والياً عليها من قبله.

امتنع أمير البوسنة عن دفع الخراج فسار إليه السلطان، وانتصر عليه، وضمّ البوسنة للدولة العثمانية، وحاول ملك المجر مساعدة أمير البوسنة غير أنه هُزم، وأعلن كثير من البوشناق إسلامهم.

واصطدم السلطان مع البنادقة الذين يملكون بعض المواقع في بلاد المورة وجزراً كثيرةً في بحر إيجه، وقد هاجم البنادقة بعض المراكز العثمانية ودخلوها فسار إليهم السلطان ففرّوا من مواقعهم ودخلها السلطان، وبعد هدنة سنةٍ عاد البنادقة لغيّهم إذ أرادوا استعادة ما فقدوه وبدؤوا يُغيرون على أملاك العثمانيين فكانت النتيجة أن فقدوا بعض مواقعهم المهمة.

بدأ البابا يدعو إلى شنّ حربٍ صليبيةٍ فشجّع إسنكدر بك أمير ألبانيا على نقض عهده مع السلطان، ودعا ملوك أوربا وأمراءها لمساندته، غير أن البابا قد توفي ولم تقم حرب صليبية. ونقض إسكندر بك العهد، وحارب العثمانيين، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين، وتوفي إسكندر بك سنة ٨٧٠هـ (١٤٦٥م).

عرض السلطان عام ٨٧٨هـ (١٤٧٣م) على أمير البغدان اصطفان الرابع الجزية حتى لا يُحاربه فلم يقبل الأمير، فأرسل إليه جيشاً وانتصر عليه بعد حروب عنيفة، ولكن لم يستطع فتح هذا الإقليم، فعزم السلطان على دخول القِرم للإفادة من فرسانها في قتال البغدان، وتمكّن من احتلال أملاك الجنويين الممتدة على شواطئ شبه جزيرة القرم، ولم يقاوم التتار سكان القرم العثمانيين بل دفعوا لهم مبلغاً من المال سنوياً وأقلعت السفن الحربية العثمانية من القرم إلى مصب نهر الدانوب فدخلته، وكان السلطان يدخل بلاد البغدان عن طريق البر، فانهزم اصطفان الرابع وتبعه السلطان في طريق مجهولة فانقضّ عليه اصطفان الرابع فانهزم السلطان سنة ٨٨١هـ (١٤٧٦م)، وارتفع اسم اصطفان الرابع.

وصالح السلطان البنادقة، وانهزم أمام المجر عندما سار لفتح

ترانسلفانيا، ولكنه فتح في البحر الجزر التي بين اليونان وإيطاليا، كما فتح مدينة (أوترانت) في جنوبي شبه جزيرة إيطاليا عام ٨٨٥هـ (١٤٨٠م)، وحاصر جزيرة (رودوس) ولكن لم يتمكّن من فتحها.

وتوفي السلطان محمد الفاتح يوم ٤ ربيع الأول عام ٨٨٦هـ (٣ حزيران ١٤٨١م) عن عمر يُناهز الخامسة والخمسين بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنةً.

٨- بايزيد الثاني:

أكبر أولاد السلطان محمد الفاتح، وتسلّم السلطنة بعده.

فشل العثمانيون في فتح بلغراد، وتوطّدت الصلات مع بولونيا عام ٨٩٥هـ (١٤٨٩م)، ثم حدث الخلاف بينهما إذ كان كل من الجانبين يدّعي الحماية على البغدان، وقد اعترف أمير البغدان بالحماية العثمانية، وقاتل معهم البولونيين.

بدأت الدول تتقرّب من الدولة العثمانية وتخطب ودّها عندما ظهرت قوتها، وتطلب منها عقد الأحلاف للإفادة منها في قتال خصومها، وخاصةً الإمارات الإيطالية، وقد حارب العثمانيون دولة البندقية، وانتصروا عليها، فاستنجدت بالبابا وملك فرنسا، وكانت حرباً صليبية.

وظهرت دولة روسيا عام ٨٨٦هـ (١٤٨١م)، ووصل أول سفير روسي لاستانبول يحمل الهدايا عام ٨٩٧هـ (١٤٩١م)، ووصل السفير الثاني عام ٩٠١هـ (١٤٩٥م).

وتوفي بايزيد الثاني سنة ٩١٨هـ (١٥١٢م)، وخلفه ابنه سليم.

٩- سليم الأول:

رأى أن أوربا النصرانية لا يمكن مواجهتها إلا باجتماع المسلمين فاتجه إلى المشرق وقاتل الصفويين، وقضى على دولة المماليك، وتسلّم الخلافة، وأخذ جزيرة العرب، ووقف في وجه المستعمرين البرتغاليين أصحاب النوايا الحاقدة تجاه الأماكن المقدسة الإسلامية، وتوفي سليم الأول في ٩ شوال ٩٢٦هـ (الأول من تشرين الثاني ١٥٢٠م).

١٠- سليمان القانوني:

تسلّم الخلافة بعد أبيه، وأرسل رسولاً إلى ملك المجر يطالبه بدفع الجزية، فقتل الملك الرسول، وعندما وصل الخبر إلى الخليفة جمع جيشه وسار على رأسه لقتال المجر، ودخل بلغراد بعد حصار قصير، وغادرتها الجنود المجرية.

فتح الخليفة جزيرة رودوس في ٢ صفر ٩٢٩هـ (٢٢ كانون الأول ١٥٢٢م).

أصبحت شبه جزيرة القرم ولاية عثمانية. كما استولى على عاصمة الأفلاق.

تحالف مع ملك فرنسا ضد المجر، وانتصر على المجر، ودخل عاصمتهم (بودا)، وقتل ملكهم لويس. وحاصر عاصمة النمسا فيينا غير أنه لم يستطع دخولها.

هاج الرأي العام النصراني في أوربا ضد فرنسا لتحالفها مع العثمانيين المسلمين الذين يقاتلون دولة النمسا النصرانية، فخضع ملك فرنسا (فرانسوا الأول) للرأي العام الصليبي، وعادت الحرب بين الدولة العثمانية والنمسا، وهُزمت النمسا.

هاجمت الجيوش النمساوية المجر لإنهاء الحماية العثمانية، واحتلت مدينة (بست)، ومع وصول الخبر إلى الخليفة اتجه فوراً عام ٩٤٧هـ (١٥٤٠م) على رأس جيش ففرّ النمساويون، وغدت المجر ولايةً عثمانية.

وعُقدت معاهدة بين الدولة العثمانية والنمسا سنة ٩٥٤هـ (١٥٤٧م) لمدة خمس سنوات تدفع بموجبها النمسا جزية سنوية لقاء ما بقي تحت يدها من المجر.

تنازلت (إيزابيلا) أرملة جان زابولي عن ترانسلفانيا إلى

فرديناند الأمير النمساوي مخالفةً بذلك شروط الهدنة الموقعة بين العثمانيين والنمساويين، فأرسل الخليفة جيوشه التي احتلت ترانسلفانيا بعد مقاومة وذلك عام ٩٥٧هـ (١٥٥٠م) كما انتصرت على النمساويين في عدة مواقع في العام التالي.

ومات ملك فرنسا (فرانسوا الأول) وخلفه ابنه هنري الثاني فجدّد المعاهدة مع العثمانيين عام ٩٥٩هـ (١٥٥٢م)، وأغارت بعدها الدولتان على صقلية وجنوبي إيطاليا، وفتحت أساطيلهما جزيرة كورسيكا، ثم اختلف القائدان، فتركا الجزيرة، وعاد كل منهما إلى بلده.

وحاصر العثمانيون جزيرة مالطة عام ٩٧١هـ (١٥٦٣م) مدة أربعة أشهر، ولم يتمكّنوا من فتحها.

وعاد الخليفة للقتال في بلاد المجر عام ٩٧٣هـ (١٥٦٥م) نتيجة الخلاف بين اصطفان زابولي ملك المجر ومكسمليان ملك النمسا الذي خلف أباه فرديناند.

وتوفي الخليفة سليمان القانوني أثناء حصاره لإحدى القلاع هناك عام ٩٧٤هـ (١٥٦٦م)، وكانت الخلافة العثمانية قد بلغت الأوج في عهد سليمان القانوني.